إنتاجية المعرفة التاريخية في الخطاب النقدي عند إدريس الخضراوي: قراءة في المرجعيات والآليات الإجرائية

Historical Knowledge Productivity in the Critical Discourse of Driss El Khadraoui:A Reading in the Références and Operational Mechanisms

محمد الوسطاني
طالب باحث في سلك الدكتوراه، بإشراف الدكتورة ربيعة بنويس.
جامعة ابن طفيل القنيطرة
Mohammed.eloustani@uit.ac.ma

ملخص

نُقارب في هذه الورقة المنجز النقدي للباحث إدريس الخضراوي الموسوم ب: "**من التاريخ إلى الرواية: دراسة في آليات إنتاج المعرفة التاريخية عبر السرد**"، ضمن أفق "نقد النقد". ونروم من خلال هذه الدراسة تفكيك إشكالية محورية تتصل بكيفية صياغة الناقد لتصور يرى في الرواية أداة لإنتاج المعرفة التاريخية؛ وما يتفرع عنها من أسئلة تخص آليات إعادة بناء العلاقة بين الحقيقة والتخييل، وجدارة المتخيل في استعادة الذاكرة ومقاومة النسيان. تنهض مقاربتنا على فرضية مركزية مؤداها أن مشروع الخضراوي يُمثل نقلة ميتا–نقدية تتجاوز القراءات الشكلانية المغلقة نحو نقد ثقافي يستنطق المسكوت عنه في الذاكرة الجمعية. ولفحص هذه الفرضية، اعتمدنا منهجاً تحليلياً بدأنا فيه بمساءلة العتبات النصية، ثم انتقلنا لتشريح المفاهيم المفتاحية كـ "سرد الذاكرة" و"تفكيك المزيج الاستعماري"، مع التركيز على آليات الإجراء في المتون الروائية المدروسة (شربل داغر ومحمد المعزوز) لتنتهي المقاربة إلى إثبات قدرة السرد على استعادة أصوات المهمشين وإعادة بناء الهوية الوطنية بما يتجاوز التاريخ الرسمي، مقدماً نموذجاً رصيناً يجمع بين عمق التنظير وصرامة التطبيق في دراسات التداخل الأجناسي.

الكلمات المفاتيح:

السردية العربية، المعرفة التاريخية، التداخل الأجناسي، الذاكرة الجمعية، التخييل الروائي.

Abstract

In this paper, **we approach** the critical oeuvre of researcher Idris El Khadraoui, titled *"From History to the Novel: A Study on the Mechanisms of Producing Historical Savoir through*

Narrative," within the horizon of meta-critique. Through this study, **we aim** to deconstruct a pivotal problematic concerning how the critic formulates a vision that conceives the novel as a tool for producing historical savoir, along with its sub-questions addressing the mechanisms of reconstructing the relationship between truth and fiction, and the capacity of the fictional image to restore memory and resist oblivion.

Our approach rests on a central hypothesis stating that El Khadraoui's project represents a meta-critical shift that transcends closed formalist readings toward a cultural critique that interrogates the unspoken elements of the collective memory. To test this hypothesis, **we adopted** an analytical method in which **we began** by questioning the textual thresholds, then **we proceeded** to dissect key concepts such as the "narrative of memory" and the "deconstruction of the colonial complex," while focusing on the operational mechanisms applied to the studied novelistic texts (Charbel Dagher and Mohamed El Maâzouz).

Conclusively, the approach demonstrates that narrative possesses an aptitude for restoring the voices of the marginalized and reconstructing national identity in a way that transcends official history, offering a rigorous critical model that combines theoretical depth and empirical stringency in the studies of intergenericity.

Keywords: Arabic Narratology, Historical Knowledge, Generic Hybridization, Collective Memory, Novelistic Imagination

مقدمة في العتبات:

تتبدى العتبات المحيطة بكتاب إدريس الخضراوي بوصفها إستراتيجيات نصية موجهة لوعي القارئ، وشبكة من المؤشرات السيميائية التي تختزل الأفق المعرفي للمؤلَّف وتحدد مسبقاً ميثاق التلقي. فالعنوان الرئيس الموسوم بـ "**من التاريخ إلى الرواية**" يعلن عن حركية عبور إبستمولوجية تتجاوز الحدود الأجناسية التقليدية، لتكشف عتبته الفرعية المتمثلة في عبارة: "**دراسة في آليات إنتاج المعرفة التاريخية عبر السرد**" عن جوهر الإشكالية الثاوية في صلب الكتاب، وهي إشكالية ترتقي بالسرد من رتبة الترف التخييلي السكوني لتعيد بناءه كقناة وثائقية ومعرفية سيادية تشارك علم التاريخ في صياغة الوعي بالماضي وصيانة الذاكرة الجماعية، وتتآزر هذه التسمية مع اللوحة البصرية الجاحظة على الغلاف، والتي تُظهّر رسماً تعبيرياً باللونين

الأبيض والأسود يمتزج فيه الفارس بجواده المشدود العنان في حالة وثوب، بما يرمز سيميائياً إلى حركية المتخيل الروائي المندفع نحو زحزحة السرديات الرسمية الجافة وإعادة بعث الوقائع الساكنة.

وتكتمل هذه الهندسة الإشهارية بالانتقال إلى ظهر الغلاف، حيث ينهض النص الموازي المقتضب بوظيفة التوجيه الإجرائي عبر حصر فرضيات المنجز وتحديد غاياته المتمثلة في استقصاء تحولات المفهومين الأدبي والتاريخي منذ النصف الثاني من القرن العشرين، ويضع هذا النص الخلفي القارئ مباشرة أمام معالم المختبر التطبيقي للكتاب، معلناً اتكاء الناقد على نموذجين روائيين عربيين هما: رواية "ابنة بونابرت المصرية" لشربل داغر، ورواية "حرب الكوم" لمحمد المعزوز؛ ويظهر هذا التقديم كيف سعى الناقد إلى استنطاق المسكوت عنه في حقبة الحملة الفرنسية على مصر، وعصر الاستعمار في المغرب، جاعلاً من الفئات المهمشة ركيزةً فارقة لإعادة بناء التاريخ المعاصر المغرب والمشرق.

ولا تقف حركية العتبات عند الأبعاد المفاهيمية الصرفة، بل تنفتح حوارياً وثقافياً في صفحة "شكر وامتنان"، إذ يفصح الخضراوي من خلالها عن حفرية المقالات المكونة لكتابه، والتي تضرب بجذورها في منابر نقدية رصينة مثل مجلة "تبين للدراسات الفلسفية والنظرية النقدية" (العدد 33، المجلد9، صيف 2020)، وموقع "العربي الجديد" (أغسطس 2023). إن هذا الإفصاح يمنح المادة العلمية مصداقية جماعية واكبت بالتحليل والتشريح لحظة صدور المتون الروائية موضوع الدراسة. ويتوج الناقد هذا الانفتاح بلفظة اعتراف وجداني حميم يربط فيها استواء عمله الفكري بظلال السند الأسري، حيث تتكتم اللوحة الورقية وراء "بصمات خفية" لزوجته ذة. حليمة الهاشمي، وأبنائه أديب، عدنان، وغسان، ويتجلى في هذا المزيج خصوصية الأفق النقدي عند الخضراوي؛ حيث تتبدى ممارسته الخطابية كفاعلية إنسانية حية، تتآزر فيها صرامة المرجعية المعرفية مع حيوية العلاقات الوجودية المحيطة بها.

إن هذا التلاحم الحي بين البعد الإنساني والعمق المنهجي الذي كشفت عنه العتبات النصية، يمثل المدخل الطبيعي لفحص الجوهر المعرفي لمشروع الخضراوي النقدي، ومساءلة مرجعياته الإبستيمولوجية التي نقلت السرد من جلباب الوصف الساكن إلى رحاب المثاقفة الكونية المتسعة.

1-إبستمولوجيا التداخل الأجناسي: مساءلة الحدود بين التاريخ والسرد.

ينبثق الوعي الإبستمولوجي المعاصر عند إدريس الخضراوي من رؤية رؤية منهجية مؤسِّسة تعيد ترتيب أولويات الفكر النقدي، إذ لم يعد يرى في السرديات مجرد عُدّة واصفة أو جهاز تقني سكوني، بل ينظر إليها بوصفها مجالاً معرفياً منفتحاً على تاريخ الأفكار، والأنظمة الفكرية، والخطابات الثقافية بصفة

عامة[186]، ويتجلى هذا المنظور التوليدي بوضوح في رصده للتحولات الجوهرية التي مست درس الأدب منذ النصف الثاني من القرن العشرين، حيث انتقل الاهتمام من تحديد ماهية النص وبنيته الداخلية، إلى رحاب ممارسة بينية تستثمر الفكر السردي في تفكيك الأنساق الإيديولوجية والجمالية والثقافية، إنها خطوة إجرائية تعيد صياغة صلات الأدب بالتاريخ، وتمنح الذاكرة الإنسانية قوة حيوية قادرة على خلخلة الأنماط الوثائقية الجاهزة، إذ يرى الخضراوي أن السرديات قد فتحت أمام دراسة الأدب والسرد آفاقاً رحبة وواسعة، محوّلةً النظرة إلى الدراسة الأدبية التزاماً واقتراباً مما يتفاعل على أرض الواقع من توترات واضطرابات وتحيزات[187]، ليغدو الأدب في منظوره نمطاً إنسانياً مركزياً للمعرفة يتقاطع كلياً مع قضايا الثقافة والعالم والمجتمع.

وتتأسس هذه المرجعية الإبستيمولوجية للخطاب النقدي عند إدريس الخضراوي وتصل ذروة نضجها في كتابه "**من التاريخ إلى الرواية**"، حيث تقوم على صيرورة مراجعةٍ واعية للتقاطعات الحيوية القائمة بين حقول السرديات، والتاريخ، وفلسفة التأويل. ويتجلى هذا الثراء المعرفي في تمثُّل الباحث للنظرية الغربية الحديثة، إذ تتقاطع أطروحات توماس بافل Tomas Pavel حول المنعطفات الجوهرية للأدب ووظائفه الوجودية، مع جهود بول ريكور Paul Ricoeur الصارمة في تتبع مسارات الزمن والذاكرة، وتنفتح في الآن ذاته على السجال النقدي المغربي والعربي المعاصر المعني بأسئلة التداخل الأجناسي. إن هذه المرجعيات المتضافرة تعيد الاعتبار لـ "سيرة الفرد" والمادة الحكائية بوصفها مختبراً سوسيولوجياً مصغراً، وفضاءً نموذجياً يتيح للباحث تتبع شبكات العلاقات المعقدة، واستكشاف استراتيجيات الأفراد في نسج خيوط حيواتهم، فضلاً عن رصد التحولات الحرفية والاقتصادية ودراسة الحراك الاجتماعي عموماً ضمن سيرورة جماعية ممتدة لا تنفصل عن سياقها التاريخي المحيط بها[188]، ويتجاوز السرد الروائي في هذا المنظور حدود التوصيف الخارجي الجاف، ليسير بالبحث نحو أفق "الأنثروبولوجيا التاريخية"، وهي زاوية معالجة جديدة تسعى حثيثاً إلى بلوغ صورة "الإنسان الكلي" في أبعاده المتعددة والمتشابكة، حيث تتحول عودة التاريخ إلى الذات الإنسانية وعوالمها الصغرى إلى محاولة علمية لاستكشاف الحيز الوجودي الذي تنكشف فيه حقيقة الوعي البشري وتفاعله الحي مع صدمات الوجود وتحولات المجتمع[189].

186 : إدريس الخضراوي، السرديات أو تحولات الوعي بالخطاب الأدبي، مجلة ثقافات، ع 21، 2008، ص 106

187 : المرجع نفسه، ص 115-116

188 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مرجع سابق، ص 16.

189 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مرجع سابق ، ص 16-17.

وتتضاعف القيمة العلمية لهذا الطرح عند النظر إلى الأدب بوصفه مصدراً حيوياً ومستقلاً لإنتاج المعرفة، وقناةً نصية تنهض بوظائف بالغة الأهمية في صيانة الذاكرة الجماعية وحمايتها من التلاشي أو الانكفاء تحت وطأة التصورات الشمولية الجاهزة[190]، إنها ممارسة بينية تستوعب النص كبنية جمالية مشحونة بالأسئلة الثقافية والسياسية والوجودية للمجتمع، مما يمنح المتخيل الروائي طاقة استكشافية قادرة على ملامسة جراح الذاكرة الجمعية واستنطاق المسكوت عنه في السرديات الرسمية. ويثير هذا التمازج إشكالية التعقيد البنيوي الذي يربط الرواية والتاريخ بالتمثيل السردي، وهو تمثيل يتكئ بالضرورة على الذاكرة الجماعية وصناعة الوعي بالعالم، ليتوج هذا التلاحم بتطابق بنيوي أصلت له النظرية النقدية المعاصرة عبر إثبات اشتراك السرد والتاريخ في "بنية الحبكة"[191]، لتنبثق المعرفة التاريخية والسردية من مشكاة بنائية واحدة.

وتأسيساً على هذا الأفق المعرفي، يتشكل التركيب المنهجي الإجرائي في كتاب "من التاريخ إلى الرواية"؛ لِيُؤسِّس لِمُعطىً إبستيمولوجيٍّ تَتحدَّد بموجبه العلاقة بين الحقلين التاريخي والأدبي بوصفها بنية شديدة التداخل والتعقيد في الممارسات النقدية المعاصرة، على نحوٍ يجعل من الأطر التصنيفية والتقليدية السابقة مقولات متجاوزة إجرائياً، وتحديداً تلك الأطروحات الكلاسيكية التي كانت تؤسس لفصل ميكانيكي حاد بين هذين المبحثين المعرفيين وتتعامل معهما كجزر معزولة[192]، مؤشرةً على تداخل الحدود الإبستيمولوجية بين السرد والتاريخ؛ إذ يتجلى هذا التحول في ظهور نصوص أدبية تسهم بنيتها الخطابية في إنتاج معرفة تاريخية موازية، وهي معرفة تعمد إلى تفعيل "الذاكرة" بوصفها حركية حية تختزل ما تبقى من أثر الماضي في عصب الحاضر المشهود، متجاوزة الرصد الوثائقي الجامد لما حدث[193]، ويقود هذا التفكيك التكاملي إلى رصد انعطاف بالغ الأهمية داخل حقل العلوم الإنسانية وفي طليعتها علم التاريخ نفسه؛ إذ يلاحظ الناقد أن المؤرخين والمتخصصين في الدراسات التاريخية قد بدأوا في مراجعة المقتربات التقليدية التي كانت تصنف المعرفة الأدبية بوصفها خطاباً تخييلياً يفتقر إلى الموضوعية والشرعية الإجرائية[194]، إن مغادرة هذه المنطقة جاءت استجابةً لتحول معرفي وطيد أثبتت من خلاله كتابات "هايدن وايت" و"بول ريكور" اشتراك السرد والتاريخ في "بنية الحبكة"، مثلما تكرست الذاكرة بفضل مجهودات "بيير

190 : المصدر نفسه، ص 17 .
191 : اندري بورغيير ، الأنثروبولوجيا التاريخية، مرجع سابق، ص 34-35
192 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مصدر سابق، ص 35
193 : المصدر نفسه، ص 35 .
194 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مصدر سابق ، ص 35

نورا" بوصفها حقلاً رصيناً للدراسة العلمية، مما دفع بالمؤرخين الجدد إلى الجهر علانيةً بأهمية الأدب كقناة وثائقية ومعرفية لا غنى عنها[195]، حيث يلتقي وعي المؤرخ بخيال السارد.

2-حوارية الأطروحات الغربية والنقد العربي المعاصر.

إن فحص أبعاد هذا الوعي الإبستمولوجي والتداخل الأجناسي في مشروع الخضراوي، يتطلب الكشف عن المرجعيات الفكرية الحاكمة لطروحاته، إذ يتقاطع منجزه مع السرديات الحديثة وفلسفات التأويل والنقد العربي المعاصر، ويُمثِّل استثمار هذه المداخل البينية ركيزةً فكريةً في هذا المشروع حيث تتجاوز الرواية في منظوره المقاربات الشكلانية المغلقة نحو أفق "النقد الثقافي" بوصفه إطاراً يسعى إلى إنتاج معرفة تاريخية موازية تعيد الاعتبار للمسكوت عنه في الذاكرة الجمعية، ومِنْ هذا المنطلق، يتحول هذا التداخل في أبعاده الإبستيمولوجية إلى آلية إجرائية صارمة يتكئ عليها الناقد لتشريح النماذج الروائية المختارة، إذ يتجاوز النص الروائي في هذا المنظور رتبة المحاكاة الميكانيكية للماضي، ليعيد بناء الواقعة التاريخية من خلال أدوات التخييل وشعرية الحبكة مُتيحاً بذلك مساءلة السرديات الرسمية واستحضار الخطابات الهامشية.

ويستدعي فحص المرجعيات النظرية الكامنة وراء هذه الأدوات، رصد لائحة المصادر والمراجع المعتمدة في كتاب إدريس الخضراوي، حيث يتقاطع منجزه مع السرديات الحديثة وفلسفات التأويل والنقد العربي المعاصر، ويظهر هذا التعدد المرجعي في استناد الناقد إلى أطروحات السردي توماس بافل T. Pavel وتحديداً في أطروحاته حول مسارات الفكر الروائي ووظائفه الوجودية[196]، والتي يتقاطع عبرها مع مجهودات إيفان جابلونكا المعنية بمساءلة الأجناس والبحث عن التاريخ بوصفه ممارسة أدبية ممتدة[197]، إن هذا الانفتاح المعرفي يمنح الخطاب النقدي عند الخضراوي أفقاً تركيبياً يستوعب الرؤى الفلسفية لـ "هايدن وايت" في تفكيكه لشعريات الخطاب التاريخي وآليات اشتغال الحبكة[198]، بالتوازي مع استثمار المنظورات المفاهيمية لفينومينولوجيا الذاكرة والزمن عند بول ريكور P. Ricœur، وحيث يتقاطع هذا الأفق النظري مع

---

195 : نفسه، ص35.

196 : انظر لائحة المراجع الأجنبية للمؤلِّف:

Pavel, Thomas, La pensée du roman, Paris : Éditions Gallimard, 2003

197 : انظر لائحة المراجع الأجنبية للمؤلِّف، انظر:

Jablonka, Ivan, L'Histoire est une littérature, Paris : Éditions du Seuil, 2014

198 : انظر لائحة المراجع الأجنبية للمؤلِّف، دراسة وايت المترجمة إلى الفرنسية:

Carrard, Philippe, Hayden White : L'Histoire s'écrit, Paris : Éditions de la Sorbonne, 2017

طروحات النقد العربي المعاصر المعني بأسئلة التمثيل السردي والذاكرة. ويتجلى هذا التناص النقدي في التقاء أبحاث الخضراوي مع إسهامات "محمد برادة" التي تبحث في إمكانات الرواية الإجرائية، وقدرتها على استدعاء الذاكرة وإعادة صياغة أسئلة الوجود والمستقبل[199]، إلى جانب استحضار أطروحات صبري حافظ المتعلقة بالسياقات الاجتماعية والثقافية الناظمة لتطور الخطاب الروائي العربي[200]، وهو ما يعكس اعتماد مشروع ادريس الخضراوي على مرجعيات متعددة تتجاوز الحدود المنهجية التقليدية.

يتبلور في هذا الأفق منظور إبستمولوجي يتخذ من سيميائيات العتبات منطلقاً لتوجيه أفق التلقي، ومن التداخل الأجناسي مدخلاً لمساءلة الأنماط الوثائقية التقليدية؛ مِمَّا يتيح لمشروع "الخضراوي" التقاطع حوارياً مع الأنساق الفكرية المعاصرة. ويُفضي رصد هذه الخلفيات المرجعية إلى استخلاص الفرضية الأساسية للكتاب ومفادها أنَّ الرواية في إبستمولوجيا السرد المعاصر، لا تُختزل في كونها انعكاساً تخييلياً عارضاً، بل تتحدد بوصفها خطاباً موازياً لعلم التاريخ في تنظيم الزمن وصيانة الذاكرة الجمعية.

ومن منظور قراءة "نقد النقد"" فإن انتقال هذه الخيارات المنهجية من رتبة التنظير الفلسفي إلى سياق الإجراء التطبيقي يمثل المحك المنهجي الذي تختبره الدراسة في المحور الموالي؛ حيث نتقصى الكيفية الإجرائية التي قارب بها الناقد المتون الروائية المختارة، ومدى جدارة أدواته في فحص طاقات المتخيل الروائي ومساءلة السرديات الرسمية، واستحضار خطابات الهامش، وتفكيك البنى الكولونيالية، في سياق مقاربتها لأسئلة الوجود والذاكرة والهوية.

3- آليات الإجراء الإستراتيجي ومسارات التفكيك الميتانقدي.

تنخرط هذه المحطة الإجرائية في تتبع انتقال الناقد بمفاهيمه من رتبة التجريد النظري نحو فضاء التفكيك والممارسة التطبيقية داخل روايتي "ابنة بونابرت المصرية" لشربل داغر و"حرب الكوم" لمحمد المعزوز. وتأسيساً على هذا العبور، نتقصى عملياً **مدى فاعلية هذه الخيارات المنهجية** في صياغة معرفة تاريخية بديلة، وذلك عبر ثلاثة مسارات متكاملة: يتحدد أولها في رصد آليات "المتخيل التاريخي" واستراتيجياته في مساءلة السرديات الرسمية، ويتمحور ثانيها حول استنطاق حفرية "الذاكرة" في سعيها لاستحضار الأصوات الهامشية، في حين يخلص ثالثها إلى تفكيك شعرية "الخطاب" وتمفصلات الحبكة الاستكشافية في مقاربتها لأسئلة الهوية.

---

199 : محمد برادة، الرواية ذاكرة للمستقبل، القاهرة: دار آفاق للنشر والتوزيع، 2008.

200 : دريس الخضراوي، **من التاريخ إلى الرواية**، مرجع سابق، ص 35.

1.3.المتخيل التاريخي واستراتيجيات زحزحة السرديات الرسمية.

تتأسس الممارسة النقدية في الأفق الفكري للباحث إدريس الخضراوي على مقترب معرفي يسعى إلى تجاوز التوصيف السطحي نحو المساءلة الإبستيمولوجية، حيث يتأسس الطرح على فرضيةٍ مِحوَرُها أنَّ "فعل الكتابة في جوهرها هو بحث دائم عن إمكانات فهم الذات الإنسانية ومواجهة واقعها"[201]، وبموجب هذا الطرح الإبستمولوجي التأسيسي يعيد الخطاب النقدي عند إدريس الخضراوي صياغة العلاقة بين الحقيقة التاريخية والتخييل السردي انطلاقاً من مراجعة إبستمولوجية عميقة للمفاهيم التقليدية التي كانت تفصل بين الأدب والتاريخ فصلاً حاداً، إذ لم يعد التاريخ في تصوره خطاباً يمتلك سلطة الحقيقة المطلقة، كما لم تعد الرواية مجرد بنية تخييلية منفصلة عن الواقع، بل غدت–ضمن أفق السرديات المعاصرة–شكلاً معرفياً قادراً على مساءلة الماضي وإعادة بناء الذاكرة الجماعية عبر آليات التمثيل السردي والتخييل النقدي والاشتباك مع إكراهات الواقع وشروطه السوسيولوجية والتاريخية المركبة والمتحولة.

وينطلق الخضراوي في هذا التصور من وعيٍ نقدي متأثر بالتحولات التي شهدتها العلوم الإنسانية منذ النصف الثاني من القرن العشرين، وخاصة مع صعود السرديات وفلسفات التأويل والتاريخ الجديد، حيث تزعزعت الحدود الصارمة بين الوثيقة التاريخية والمتخيل الأدبي. ومِنْ ثَمَّ، تتجاوز الحقيقة التاريخية في مشروعه رتبة المعطى الجاهز والثابت، لتتحدد كبناءٍ خطابيّ يخضع بدوره لعمليات الانتقاء، والترتيب، والحبك، والتأويل؛ وهي الأطروحة التي بلورها هايدن وايت H. White حين أكد أنَّ الكتابة التاريخية تقوم على بُنيةٍ سردية لا تختلف جذرياً عن بنية الخطاب الروائي.

ومِنْ ثَمَّ، يغدو التاريخ شكلاً من أشكال السرد، لا مجرد انعكاس محايد للوقائع. وهي الدينامية التي تستمد مشروعيتها المنهجية في التصور النقدي للخضراوي من الالتزام بـ "أخلاقيات القراءة"، عبر رفض ارتهان النص الروائي كـ "ذريعة" لإسقاط المواقف الأيديولوجية أو المرجعيات العقائدية الجاهزة، والتي تؤول في نهاية المطاف إلى إنتاج معرفة خارج–نصية مغتربة عن منطق المتن وشعريته.

وعلى هذا النحو، يتجاوز مفهوم "الوفاء للنص" في الطرح النقدي للخضراوي رتبة الامتثال الآلي للمادة الوثائقية أو إعادة إنتاج الوقائع الرسمية المقررة من قِبل سلطة التدوين، ليتحدد في القبض على حقيقة

201 : عبد المالك أشهبون، روايات عربية ممنوعة وحرائق أسئلة التلقي، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2026، ص 8.

التجربة الإنسانية المتموضعة في منطقة "البرزخ"[202] بوصفها فضاءً للتقاطع المتبادل بين متخيل النص وسياقه المرجعي، وفي ضوء هذا التحول المعرفي يمنح الخضراوي للرواية وظيفةً تتجاوز المحاكاة والتخييل الجمالي لتصبح أداةً لإنتاج معرفة موازية بالتاريخ، خصوصاً في المناطق التي يعجز فيها التاريخ الرسمي عن استيعاب التجارب الإنسانية الهامشية أو المسكوت عنها.

فالرواية–في منظوره–تمتلك قدرة استثنائية على استعادة الأصوات المقصية، واستنطاق ذاكرة الجماعات المهمشة، والكشف عن التوترات الثقافية والاجتماعية التي غالباً ما تُقصيها السرديات السلطوية الكبرى، وعلى هذا الأساس يتجاوز النص الروائي–في منظور الخضراوي–رتبة الوثيقة التاريخية البديلة، ليتحدد كممارسةٍ تأويلية تعيد مساءلة الوقائع من الداخل، كاشفةً عن الأبعاد الإنسانية والنفسية والرمزية التي تعجز المدونة التاريخية التقليدية عن استيعابها، ومن ثَمَّ ينتصر لإنتاج معرفة تاريخية بديلة تعيد صياغة الذاكرة والمجتمع من الأسفل، وعبر استغلال الخصوصية الخطابية والجمالية للشكل الروائي.

وعليه، ينبثق مفهوم "المتخيل التاريخي" في القراءة التطبيقية للخضراوي بوصفه آلية سيادية، اختراقية، وتفكيكية، تسعى بالأساس إلى زحزحة البنى الساكنة وصهر السرديات الشمولية الجافة التي طالما ادعت احتكار الحقيقة التاريخية الكبرى. فالرواية التاريخية المتميزة بحسب الخضراوي لا ترهن قيمتها المعرفية بمحاكاة التاريخ النمطي وإعادة صياغة أحداثه الكبرى دون استثمار طاقات الشكل الروائي ووعيه النظري الباني[203]. وتتحدد الجدارة الإبستيمولوجية للمتخيل الروائي في اشتغاله على الفجوات والمناطق المعزولة والمجهولة داخل طيات التجربة الإنسانية المنسية [204]، ويتجلى هذا التصور بوضوح في قراءاته التطبيقية لروايتي "ابنة بونابرت المصرية" لشربل داغر و"حرب الكوم" لمحمد المعزوز، إذ يبرز كيف يؤُول السرد الروائي إلى فضاء لإعادة بناء التاريخ من منظور الفئات المهمشة متجاوزاً سردية المنتصرين، ومتأسساً على مرجعية الذاكرة بدلاً من الارتهان الأحادي للوثيقة، فالتخييل هنا لا يزور الحقيقة التاريخية أو ينفيها، وإنما يعيد تأويلها وتفكيكها عبر مساءلة البياضات والثغرات التي تركها الخطاب التاريخي الرسمي، لذلك فإن العلاقة بين التاريخ والرواية عند الخضراوي ليست علاقة تناقض، بل علاقة تكامل جدلي، حيث يمدّ التاريخ الرواية بالمادة المرجعية، بينما تمنح الرواية التاريخ عمقه الإنساني والتأويلي.

---

202 : هومي بابا، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006، ص. 45 وما بعدها.

203 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مصدر سابق، ص 82.

204 : المصدر نفسه، ص 85

يتضح هذا التوجه الإجرائي بجلاء في تفكيك الخضراوي لواقعة "الحملة الفرنسية على مصر" عبر رواية "**ابنة بونابرت المصرية**" **لشربل داغر**، وعلى هذا النحو، يتجاوز اختيار الناقد لهذه المحطة الاستكشافية البُعد الاتفاقي العارض، ليتحدد كضرورةٍ معرفية لاختراق بنيات "الصمت المعرفي" التي واكبت المرحلة التاريخية والوجودية اللاحقة للحملة الفرنسية[205]، فبينما يكتفي التاريخ الرسمي والمدونات السائدة بتدوين الخطاب الكولونيالي المنتصر أو الخطاب النخبوي الجاف، تأتي رواية شربل داغر لتخلخل هذا اليقين المرجعي المطمئن، إذ تعمد بفضل طاقات المتخيل إلى إعادة سرد الأحداث المؤلمة والمأساوية التي شهدتها مدينة مرسيليا، ملقيةً الضوء على المصائر التراجعية للمهمشين والمنسيين الذين جرفتهم عجلات الصدام الحضاري، وتحديداً فئة "المماليك" والوافدين الذين رافقوا بونابرت في رحلة عودته إلى فرنسا، فجوبهوا هناك بالتنكيل والاقصاء والقمع والتصفية الجسدية والمعنوية[206].

وعلى هذا النحو، يتجاوز المتخيل التاريخي في قراءة الخضراوي لرواية "داغر" حدود إعادة قراءة الوثيقة، ليمارس تفكيكاً لبنيات الأسطورة الكولونيالية عبر نزع الأسطرة الرمزية عن أطروحة الحملة النابليونية التنويرية، وهو ما يؤول إلى تمكين الأصوات الهامشية من حق التذكر والانتصار لذاكرة بديلة تخلخل النسق التاريخي التقليدي[207].

وفي المقابل، وضمن الأفق التفكيكي المسائل لأنساق السرد المرجعي المهيمن، تتحدد إستراتيجيات زحزحة السردية الرسمية في قراءة إدريس الخضراوي لواقعة "حرب تطوان (1859–1860م)" بوصفها واقعةً محورية في التاريخ المغربي والحديث، والمجسدة نصياً في رواية "حرب الكوم" للروائي محمد المعزوز؛ حيث يتجاوز المتخيل التاريخي رتبة التأثيث الفني، ليتحول إلى أداة حفرية إبستمولوجية تفكك شروط الهزيمة وتتشابك مع سياقاتها السوسيوسياسية، الوجودية، والنفسية المريرة التي رافقتها وتلتها. فالخضراوي–ومن خلال عدته المفهومية المتماسكة–يلاحق الكيفية المنهجية التي عبر بها محمد المعزوز من رتبة التوثيق التاريخي الجاف والسكوني لواقعة مواجهة الاحتلال الإسباني، إلى تشييد بنية تخييلية مركبة، دافئة، ومقاومة في الآن ذاته، وهي بنية تحتفي بالفنون، والآداب، واللغات، والتجارب الإنسانية المتباينة والمتشظية، بهدف تفجير حواجز الوثيقة الصارمة وسلطتها المعرفية الأحادية والشمولية[208].

---

205 : نفسه، ص 89.

206 : نفسه، ص 83.

207 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مصدر سابق، ص 87.

208 : المصدر نفسه، ص 91.

تتحول واقعة حرب الكوم في المنظور النقدي التطبيقي للخضراوي إلى مختبر حي لتفكيك بنية "المجزرة" بتعبيراتها المختلفة، ورصد تداعياتها الصدمية الحارقة على مستويات متعددة: نفسية، اجتماعية، وهوياتية تمس صميم الإنسان المغربي في تلك اللحظة المفصلية من تاريخه الحديث، فالتحليل الحفري عند الخضراوي لا يقف عند رصد الحدث الحربي في دلالته العسكرية أو السياسية المباشرة، بل يتعداه ليتتبع كيف تنعكس الأزمة العميقة لتلك الهزيمة على قضايا "الذاكرة والمواطنة والهوية"، ومساءلة انكسار موجة الأمل العظيم لـ "الكوم" (الجنود النظاميين وغير النظاميين، والمتطوعين، والفئات الهامشية الوافدة) الذين سحقتهم عجلات التاريخ السائد وحرمتهم الروايات الرسمية الجافة من حق الحضور، والاعتراف، والتأصيل الفاعل في متن التاريخ الوطني[209] .

كما يتقاطع هذا الطرح نسقياً مع أطروحات بول ريكور P. Ricœur حول الزمن السردي والهوية الحكائية، في جعل السرد أداةً لتنظيم التجربة وفهم الزمن التاريخي عبر آليّة الحبكة، إذ لا تُدرك الحقيقة التاريخية خارج التمثيل السردي الذي يمنح الوقائع دلالتها وإمكانية تأويلها.

ومِنْ ثَمَّ، تتأسس القيمة المعرفية لرواية "حرب الكوم" بوصفها خطاباً قادراً على إنتاج وعي نقدي بحدث الهزيمة التاريخية، متجاوزاً رتبة التدوين الآلي أو إعادة الإنتاج السلبي للوقائع، نحو إعادة صياغة الذاكرة الجمعية وتفكيك بنياتها الثاوية.

ويبرز هذا الكشف النقدي في المنظور المنهجي للخضراوي آليات اشتغال رواية المعزوز–بالتوازي مع رواية "داغر"–إلى تفكيك هيمنة السردية الكولونيالية أو المدوّنة الرسمية الجاهزة، عبر إحلال "معرفة تاريخية بديلة" تتأسس على ممكنات المتخيل الروائي ووظائفه الإجرائية، وهي معرفة تنزاح عن النقل الآلي المحايد أو الارتهان لسكونية الوثيقة، لتنبثق من تضافر بعدين متكاملين: بعد إنساني يعيد الاعتبار للفئات المتأثرة بالصدمة التاريخية في أبعادها المجالية والوجودية، وبعد جمالي يستثمر إمكانات التخييل واللغة الروائية لاستنطاق البنيات المسكوت عنها، وبذلك يؤول مشروع الخضراوي إلى إعادة الاعتبار للرواية بوصفها نمطاً من أشكال "المعرفة التاريخية المضادة"، وهي فاعلية معرفية تقاوم اختزال التاريخ في أطر الوثيقة الرسمية، لتُعيد فتح الماضي على احتمالات التأويل والذاكرة والمساءلة الإنسانية، ومِنْ ثَمَّ، ينزاح التخييل السردي في هذا الأفق عن تمثيل نقيض الحقيقة التاريخية، ليتحدد كامتدادٍ مكمّلٍ لها، يستنطق ما عجز التاريخ الوضعي عن صياغته، ويعيد للإنسان حضوره داخل حركة الزمن؛ وهو ما يؤكد جدارة "المتخيل التاريخي" بوصفه

209 : نفسه، ص 92–93.

آليةً إجرائية قادرة على خلخلة السرديات الشمولية، وزحزحة اليقينيات الرسمية، واستحضار الذاكرة الجمعية في أبعادها الوجودية التي غيبها صمت المدونات التاريخية[210].

2.3. ثقافة الذاكرة وحفرية استعادة الأصوات الهامشية.

يؤسس الباحث إدريس الخضراوي منظوره للعلاقة الجدلية بين الرواية والتاريخ انطلاقاً من مفهوم "ثقافة الذاكرة" بوصفه أفقاً معرفياً لمساءلة السرديات الرسمية؛ حيث تنزاح الذاكرة عن وظيفة الوعاء الميكانيكي لآلية استعادة الوقائع، متشكّلةً كممارسةٍ تأويلية تعيد بناء الحدث التاريخي من زاوية الفئات الهامشية والأصوات المستبعدة، وفي هذا السياق يتجه رهان الناقد نحو الرواية بوصفها خطاباً يسعى إلى ملء البياضات والثغرات التي يخلفها التاريخ الرسمي، واسترجاع التجارب الإنسانية التي تعرضت للتهميش داخل المدونات التقليدية، ويربط هذا التحول بالمتغيرات التي شهدتها العلوم الإنسانية المعاصرة–لا سيما مع صعود التاريخ الجديد وفلسفات التأويل–والتي أسهمت في إعادة الاعتبار للأدب بوصفه حيزاً معرفياً قادراً على تمثيل الذاكرة الجماعية، وإعادة مساءلة الماضي خارج الأنماط التدوينية النمطية[211].

وتستند هذه المقاربة التفكيكية إلى أطروحات السرديات المعاصرة المخلخلة للفصل التقليدي بين التاريخ والتخييل، ممّا يؤول بالخضراوي إلى تجاوز الطرح الاختزالي للرواية بوصفها محاكاةً تخييلية، نحو أجرأتها كبنية معرفية موازية تفكك خطابات الماضي وتستحضر المسكوت عنه في الذاكرة الجمعية، ومن ثَمَّ فإن المتخيل الروائي يستحيل بموجب هذه القراءة أداة ونبشاً للكشف عن التجارب المنسية، وإعادة تركيب بنية المجتمع من خلال استحضار التفاصيل اليومية، والهويات الهامشية، التي غالباً ما يتجاوزها التاريخ الرسمي المعني بمدونات النخب والمنظورات المؤسساتية، ويتقاطع هذا الطرح نسقياً مع أطروحات بول ريكور P. Ricœur حول "الذاكرة العادلة" و"الهوية الحكائية"، التي تصبح عبرها الحبكة السردية وسيلة تنظيمية لفهم الزمن التاريخي المنسي، والتزاماً أخلاقياً بوفاء نقدي يرفض التزييف ويداوي شروخ الذات الجماعية[212].

---

210 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مرجع سابق، ص 196.

211 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مصدر سابق، ص 82.

212 : المصدر نفسه، ص 85

وتأخذ هذه الحفرية عمقها الاجتماعي والسياسي عند الخضراوي من خلال تقاطعها الإجرائي مع أطروحات النقد الثقافي ومباحث ما بعد الكولونيالية حول "سرديات الأمة"، لا سيما عند هومي بابا H. Bhabha حيث يتفكك الخطاب القومي مبرهناً على مفارقة بنيوية بين لغة تعليمية شمولية تسعى إلى فرض التجانس، وبين أداء سردي تعددي ينتجه الهامش لإعادة صياغة الفضاء الثقافي من مواقع البرزخ والتهجين[213]. ويتيح هذا التقاطع النظري للخضراوي مساءلة آليات تشكّل الوعي القومي خارج الأطر الاختزالية، استناداً إلى مفهوم "الجماعات المتخيلة" لبندكت أندرسنB. Anderson، حيث تتحول الرواية إلى حاضنة أنثروبولوجية تعيد بناء الهوية الجمعية عبر تمثيل فئات الهامش والمجالات المنسية المستبعدة من مدونات المركز الرسمية[214].

ويتأكد هذا المنظور الأنثروبولوجي والحفري في قراءة الخضراوي التطبيقية لرواية "ابنة بونابرت المصرية" لشربل داغر؛ حيث يتولى السرد الروائي إعادة تمثيل حقبة الحملة الفرنسية على مصر من زاوية الفئات الهامشية، متجاوزاً منطق المركز الاستعماري أو المدوّنة التاريخية الرسمية، فالرواية–في تصور الخضراوي–تتجاوز رتبة إعادة سرد الحدث التاريخي في تزامنه مع السياق، نحو تعهده بالقراءة والتأويل عبر كشف أبعاده النفسية والثقافية والوجودية في بنيات الذوات المنسية. وتتبدى جماليات الذاكرة هنا وهي تلاحق تلك المصائر التراجعية والشديدة الألم لفئة "المماليك" والوافدين الذين جرفتهم الحملة الفرنسية في تيارها، وعادوا برفقة نابليون بونابرت إلى مرسيليا، ليجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام واقع الإقصاء، والاضطهاد، والتصفية الجسدية والمعنوية العنيفة، وهي تفاصيل يلتزم التاريخ الرسمي تجاهها صمتاً معرفياً مريباً[215]، لتدخل الذاكرة الروائية عند داغر كـ "معرفة مضادة" تفك شيفرة هذا الصمت المعرفي، محولةً السرد الروائي إلى ممارسة مقاومة للنسيان، تحفظ أثر الجماعات الصغيرة وتمنحها حق الحضور والاعتراف والخلود الرمزي داخل متخيل النص[216].

213 : هومي ك. بابا، موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004، ص 297.

214 : بندكت أندرسن، الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها، ترجمة: ثائر ديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، ص25

215 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مصدر سابق، ص 83.

216 : المصدر نفسه، ص 87

وفي السياق ذاته، تفصح قراءة الخضراوي عن كيفية اشتغال ثقافة الذاكرة في رواية "حرب الكوم" لمحمد المعزوز لتفكيك سلطة الوثيقة الأحادية التي أحاطت بواقعة "حرب تطوان" وشروط الهزيمة المصاحبة لها؛ حيث يتحول مفهوم الذاكرة في هذا الأفق النقدي إلى فضاءٍ لرصد الشروخ النفسية والمجتمعية الناتجة عن الحدث التاريخي، متجهاً صوب تتبع آثارها الوجودية من خلال استحضار مسارات وسير فئة "الكوم" المنسية، تلك الفئة الهامشية من مجندي القبائل الذين طالهم نسيان المدونات التاريخية الرسمية، فأعادت الرواية الاعتبار لجراحهم وسياقاتهم الإنسانية المغيبة[217].

وتتعزز هذه الحفرية النقدية باستثمار الخضراوي لمفهوم "سرديات الأمة"؛ حيث تتحول الرواية عبر جماليات الذاكرة إلى بنية إجرائية لإعادة بناء الهوية الوطنية من خلال استعادة الذاكرة الثقافية والاجتماعية من الأسفل، استناداً إلى تضافر البُعدين الإنساني والجمالي في تمثيل التعبيرات واللغات والآداب الشعبية بوصفها بنيات ممانعة نسقية في مواجهة خطابات الاختزال والتنميط التاريخي[218]، وهو ما ينسجم مع أطروحات النقد الثقافي في المغرب حول تاريخ الهوامش واستنطاق المتخيل الشعبي[219]. ومِنْ ثَمَّ، تتحدد الذاكرة عند المعزوز –في منظور الخضراوي– كأفقٍ متممٍ للتاريخ يمنحه عمقه الوجودي والتأويلي، لتتجاوز الرواية سياق التسلية أو المحاكاة الجمالية، وتتحدد كـ "معرفة مضادة" تواجه اختزال الوقائع في المدونة الرسمية، وتُعيد للإنسان حضوره الفاعل داخل حركة الزمن، ومِنْ ثَمَّ، يتلازم رهان الخضراوي على "ثقافة الذاكرة" بضرورة استعادة الأصوات الهامشية، لتكتسب الذاكرة أبعاداً حفرية تتجاوز رتبة التدوين السكوني نحو إعادة كتابة واعية للتاريخ، تمكّن الفئات المنسية من مجالات التعبير ومساءلة المدوّنة الرسمية

وتأسيساً على هذه المقاربة، يؤول مشروع الخضراوي النقدي إلى تمكين النص الروائي من الانزياح عن رتبة المحاكاة، ليتحدد كوثيقة أنثروبولوجية مضادة، ووساطة معرفية تبطل سكونية المدوّنة الرسمية؛ حيث لا تقتصر جماليات الذاكرة عنده على استعادة الوقائع، بل تشتغل كآلية حفرية لإعادة صياغة الهوية الجمعية، ومساءلة الأنساق الكولونيالية، وتثبيت الفاعلية الإنسانية داخل الصيرورة التاريخية.

---

217 : نفسه، ص 91.

218 : نفسه، ص 92–93.

219 : محمد بوعزة، تحليل الخطاب السردي: البنية والنمطية الثقافية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص 114.

3.3. بنية الحبكة الروائية وتعدد الأصوات كآلية لاستكشاف الهوية.

وينزاح أفق الممارسة النقدية عند إدريس الخضراوي عن رصد الأبعاد المعرفية والثقافية الملازمة للمتخيل والذاكرة، ليتجه نحو مساءلة التشكلات الخطابية في أبعادها البلاغية والتمثيلية المشتركة بين المدوّنة التاريخية والمنجز الروائي، وينفتح الوعي النقدي في هذا المسار على شعرية الخطاب بوصفها فضاءً حيوياً للالتقاء والتأويل بين الممارستين حيث يُقارب الخطاب باعتباره بنية رمزية، بلاغية، وجمالية قائمة بذاتها، تملك القدرة على إنتاج المعنى وإعادة تنظيم التجربة الإنسانية داخل الزمن السردي.

ومن هذا المنطلق المعرفي، يرتكز اشتغال الخضراوي على تفكيك "بنية الحبكة" بوصفها الآلية المركزية التي يتقاطع داخلها وعي المؤرخ بخيال السارد؛ وهو ما يسمح بالنظر إلى الكتابة التاريخية–في أبعادها التدوينية–كبناء سردي مركب يقوم على خيارات الانتقاء والترتيب والتأويل، مراجعاً بذلك الفصل التقليدي بين التوثيق والأدب، وهي الفاعلية الخطابية الموجهة لمساءلة أبعاد الزمن والمجتمع خارج سطوة السرديات الكبرى، وبما يخدم إعادة بناء الوعي الجماعي وفق أفق نقدي متقاطع، وهنا يستثمر الناقد أطروحات هايدن وايت H White في شعرية التاريخ، والتي أكدت بكثير من الحصافة الإبستيمولوجية أن التاريخ لا يتحقق ولا يكتسب دلالته الإنسانية خارج التمثيل الخطابي، وأن المؤرخ مثل الروائي، يعمد حتماً إلى حبك الوقائع وشحنها داخل بنية حكائية منسجمة تمنحها الدلالة والقبول التأويلي[220].

وتبعاً لهذا التصور الخطابي، يتعامل الخضراوي مع الرواية بوصفها فضاءً حوارياً تتشابك داخله الأصوات، والرؤى، والمنظورات، والتمثلات الاجتماعية المتباينة، مما يمنح الخطاب الروائي أبعاداً بوليفونية تُسهم في مراجعة مركزية السرد الأحادي المنغلق الذي يطبع الوثيقة الرسمية وخطاب النخب المهيمنة، وتتشكل الحقيقة التاريخية داخل النص الروائي المعاصر من خلال تعدد وجهات النظر، وتنازع الذاكرات، واختلاف المواقع الاجتماعية والثقافية للشخصيات؛ حيث تظهر الأطروحة الروائية بوصفها بناءً حركياً يعتمد التعدد والتقاطع، بعيداً عن صيغ المعطيات الجاهزة أو التفسيرات النهائية المغلقة، ومن هنا تبرز فاعلية مفهوم "الحوارية" لميخائيل باختين M. Bakhtin بوصفه خلفية معرفية في مقاربة الخضراوي؛ إذ يغدو النص الروائي فضاءً لتجاور الخطابات وتصارع الرؤى، بما يسمح بمساءلة التاريخ من الداخل وتفكيك

220 : هايدن وايت، محتوى الشكل: الخطاب السردي والتمثيل التاريخي، ترجمة: عاصم الدسوقي، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ط1، 2008، ص 45.

سلطته الأحادية، مفسحاً المجال لبروز وعي نقدي يستنطق البياضات والثغرات المتروكة في المتون السائدة، ويعيد صياغة الماضي من منظور الهامش[221].

ويبرز هذا التداخل البنيوي، السوسيولوجي، والأنثروبولوجي بوضوح ساطع ونَفَس تفكيكي ممتد في قراءات الخضراوي التطبيقية لروايتي "ابنة بونابرت المصرية" لشربل داغر و"حرب الكوم" لمحمد المعزوز، حيث يرصد بكثير من الدقة كيف تتحول الحبكة السردية من مجرد ترف تقني فني إلى مختبر حقيقي لاستكشاف الهوية الفردية والجماعية في لحظات التوتر التاريخي المفصلية والصدمية. وتكتسب الرواية–في هذا الأفق النقدي– وظيفة إبستمولوجية تتجاوز حدود استرجاع الوقائع الماضية باعتبارها أحداثاً منتهية، لتكشف عن استمرارية أثر الحدث التاريخي وحركيته في تشكيل الوعي المعاصر، وتأويل تجلياته النفسية والثقافية داخل بنيات الذات الجماعية، وهو ما يمنح المتخيل السردي قدرة على ربط الذاكرة التاريخية بأسئلة الحاضر وامتداداته المعرفية. ومن ثمَّ، تتحدد الحبكة بوصفها آلية إجرائية لاستنطاق تحولات الذات في علاقتها بالبنيات السلطوية، والسياقات الاستعمارية، وتجليات الذاكرة، والمجتمع، ويتجه التخييل السردي في هذا السياق نحو إعادة ترتيب عناصر المرجع التاريخي ومفرداته ضمن بناء جمالي مرن، يُتيح استيعاب الأبعاد المنهجية التي تجاوزها الخطاب التاريخي الوضعي، لا سيما ما يتصل بتفاصيل الحياة اليومية، وتمزقات الهوية، وهشاشة الذات الإنسانية في مواجهة التحولات الكبرى والمنعطفات التاريخية العنيفة

يتضح هذا التلاحم البنيوي المعماري بوضوح في تفكيك الخضراوي لشعرية الخطاب وعقدة الحبكة في رواية "ابنة بونابرت المصرية" لشربل داغر؛ إذ يعمد السرد الروائي إلى تخريب وتفتيت المركزية الاستعمارية الكولونيالية من منظور المهمشين والبسطاء لا من منظور المركز الفرنسي المنتصر؛ حيث يلاحق الخضراوي التعقيد المعماري وتعدد الأصوات (البوليفونية) في رواية داغر، كاشفاً كيف يستعرض النص المصائر المأساوية والتراجعية الحارقة لفئة "المماليك" والوافدين الذين جرفتهم الحملة في تيارها إلى مرسيليا، مانحاً إياهم سلطة التعبير، والبوح، والحضور السردي المتوازن داخل بنية الحكاية. لتدخل الذاكرة الروائية هنا كـ "معرفة مضادة" تفك شيفرة الصمت المريب والتعتيم المعرفي الذي فرضه التاريخ الرسمي تجاه هذه الفئة

221 : ميخائيل باختين، شعرية دويستويفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986، ص 124.

المنسية، محولة السرد إلى ممارسة مقاومة للنسيان تنزع الأسطرة الزائفة عن نابليون بونابرت وحملته الكولونيالية، وتنتصر لحق الهوامش في صياغة هويتها البديلة[222].

وفي المقابل، وعلى نفس السكة التفكيكية الحفرية، تشرح القراءة النقدية للخضراوي كيف تنهض لغة السرد والتعقيد البنيوي وعقدة الحبكة الاستكشافية في رواية "حرب الكوم" لمحمد المعزوز لتدمير وإبادة سلطة الوثيقة الأحادية الجافة التي لفت واقعة "حرب تطوان" (1859–1860م) وشروط الهزيمة النكراء التي صاحبتها. يستقرئ الخضراوي بنية الحبكة عند المعزوز باعتبارها مختبراً سيكولوجياً واجتماعياً لتفكيك بنية "المجزرة" وتتبع شروخها الصدمية الحارقة في وجدان الإنسان المغربي؛ حيث لا يقف التحليل عند الأبعاد العسكرية الباردة للمعركة، بل يغوص عميقاً لينبش سير وحيوات وفضاءات "الكوم" (الجنود النظاميين وغير النظاميين، والمطوعين، والبسطاء من أبناء القبائل المغربية) الذين سحقتهم عجلات التاريخ السلطوي وغيبت جراحهم وتضحياتهم المدونات الرسمية. وتتعمد الحبكة الاستكشافية هنا إلى استثمار الفنون، واللغات، والآداب، والتعبيرات الشعبية كآليات دفاعية وثقافية داخل النص، محولة الرواية إلى قوة ترميمية تعيد صياغة مفاهيم "المواطنة، والهوية، والذاكرة الجماعية من الأسفل"، وبناء وعي نقدي متجدد بأسئلة الكينونة والوجود ضد كل أشكال الاختزال والتشويه التدويني النمطي[223].

كما تتعزز شعرية الخطاب في مشروع الخضراوي النقدي من خلال اهتمامه البالغ بالبنية الزمنية للنص، حيث يتجاوز الزمن الروائي الخطية الكرونولوجية التقليدية والترتيب التصاعدي الساكن ليصبح زمناً متشظياً، متعدداً، وتأويلياً، تتداخل فيه الاسترجاعات، والاستباقات وفضاءات الذاكرة الحية، وهو ما يمنح السرد بُعداً تأويلياً يتقاطع مع تصورات الفيلسوف بول ريكور P. Ricœur حول الزمان الحكائي والتشابك بين الهوية السردية والزمنية، فالحبكة عند الخضراوي ليست مجرد تنظيم آلي أو فني للأحداث الروائية، بل هي إعادة تشكيل واعية للزمن الإنساني المعيش داخل أفق المعنى والدلالة، ولذلك تغدو الرواية أداةً معرفية طليعية لفهم الكيفية التي تبني بها الجماعات والمجتمعات ذاكرتها، وتمثل تاريخها، وتُعيد إنتاج وعيها بذاتها وبمحيطها المأزوم[224]، ومن هذا المنطلق، تتحول الرواية في صلب هذا المشروع النقدي إلى مختبر سوسيولوجي وأنثروبولوجي بامتياز، قادر على استكشاف البنيات العميقة للمجتمع وتفكيك أنساقه الثاوية؛

222 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مصدر سابق، ص 83.

223 : إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية، مصدر سابق، ص 91.

224 : بول ريكور، الزمان والسرد: الحبكة والزمان الحكائي (الجزء الأول)، ترجمة: سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2006، ص 172.

لأنها لا تكتفي بعرض الوقائع الجافة، بل تنفذ عميقاً إلى تمثلات الأفراد والجماعات، وتكشف أنماط السلطة، والهيمنة، والكبح، وصوت الهامش داخل النسيج الاجتماعي.

وعلى هذا النحو، لا تنفصل شعرية الخطاب في مشروع الخضراوي التفكيكي عن وظيفتها المعرفية والإبستيمولوجية، حيث يغدو السرد الروائي عنده ممارسةً نقدية واعية تعيد بناء الهوية الوطنية عبر مساءلة الذاكرة الجماعية، وتفكيك السرديات الرسمية المغلقة المحاطة بأسوار اليقين النسقي، وبهذا المعنى الحفري ينجح الناقد نجاحاً باهراً في نقل الرواية التاريخية من دائرة التخييل الجمالي المحض، والتأثيث الفني، أو الترف الفكري البارد، إلى فضاء إنتاج المعرفة التاريخية والثقافية المضادة والبديلة، مؤكداً بكل قوة وعزم أن الحبكة السردية ليست مجرد تقنية فنية مفرغة من محتواها الوجودي، بل هي أفقٌ استكشافي وحفري يعيد للإنسان الفرد البسيط والمهمش حضوره الفاعل والنابض داخل حركة الزمن التاريخي، ويمنح الهوية الوطنية إمكانية التجدد، والتشكل، والانبعاث المتجدد عبر الحوار المستمر والمسؤول مع الذاكرة، والاختلاف، والزمن.

4-حدود التوازن بين سلطة الوثيقة وسيادة المتخيل.

تقتضي القراءة الميتانقدية الواصفة، في إطار تتبع المنجز النقدي للباحث إدريس الخضراوي، الانتقال من رتبة التوصيف الإجرائي لآلياته إلى فضاء المساءلة المعرفية للحدود النظرية والمنهجية التي تحكم تصوره، إذ يتكشف من خلال التتبع الفاحص لشبكته التحليلية ملمح يتصل بطبيعة الرهان القوي الذي عقده على "إنتاجية المعرفة الروائية"، وهو رهان يميل في بعض التمفصلات نحو تضخيم سلطة المتخيل السردي إزاء الوثيقة التاريخية، عبر منح الرواية مكانة معرفية تكاد تكون سيادية في اختراق الثغرات، واستنطاق المسكوت عنه، وإعادة بناء الحقيقة الإنسانية الكلية والبديلة للتاريخ الرسمي. ورغم استناد هذا المنظور إلى أسس مرجعية صلبة تستمد مشروعيتها من تحولات السرديات المعاصرة وفلسفات التأويل (لا سيما أطروحات هايدن وايت وبول ريكور)، إلا أنه يؤدي في التطبيق الإجرائي إلى إضعاف المسافة المنهجية الفاصلة بين إعادة تأويل التاريخ، وبديل إحلال المتخيل السردي محل الوثيقة الأرشيفية، مما قد يوجه وعي المتلقي نحو استقبال الخطاب الروائي بوصفه بديلاً معرفياً تعويضياً ومكتملاً، يتجاوز رتبة الخطاب الموازي والمكمل لعلم التاريخ.

والواقع أن الإنصاف المعرفي يستدعي رصد محاولات التوازن الجدلي التي يحرص الخضراوي على تفعيلها في محطات مختلفة من قراءته. حيث يؤكد صراحة أن الرواية لا تلغي الوثيقة ولا تعدم المرجع التاريخي، بل تتجه نحو مساءلتهما وتأويلهما من الداخل بواسطة مداد التجربة الإنسانية المغيبة. ومع ذلك

فإن هذا التوازن المعرفي يواجه تفاوتات إجرائية في مستوى الصرامة العلمية داخل الممارسة التطبيقية إذ تظهر بعض المقاطع التحليلية–خصوصاً أثناء تشريح المصائر الإنسانية للمماليك في رواية شربل داغر، أو سياقات الكوم والمطوعين في رواية محمد المعزوز–مشدودةً بالكامل إلى خلفية "النقد الثقافي المقاوم"، وهو منحى يجعل المقاربة تقترب أحياناً من تبني منطلقات نظرية مضادة للأنساق السلطوية والكولونيالية، مما يفضي إلى نوع من الانحياز التأويلي القبلي لفائدة خطاب الهامش وحقوق الذاكرة الجماعية المشتركة على حساب برود الوثيقة.

وتكشف هذه التفاوتات الإجرائية طبيعة الشروط المنهجية الناظمة لخطاب نقد النقد عند مقاربة العلاقة بين حركية المتخيل ووثائقية الأرشيف؛ حيث يتبدى كتاب "**من التاريخ إلى الرواية**" بوصفه نموذجاً للممارسة النقدية البينية التي تتأرجح مساراتها التطبيقية بين متطلبات الالتزام بخصوصية المرجع التاريخي وسياقاته، وبين رهانات الانفتاح على طاقات الشكل السردي وأبعاده التأويلية الثقافية. وهو تأرجح يضع المنجز النقدي أمام مساءلة مستمرة حول مدى قدرة آلياته الإجرائية على صيانة المسافة المنهجية الفاصلة بين رصد تداخل الحقول المعرفية، وبين السقوط في الانحياز القبلي لفائدة سلطة التخييل.

غير أن هذه النزعة الحجاجية لا تُفقد مشروع الخضراوي قيمته الإبستيمولوجية الرائدة، بل تعكس انخراطه الواعي في مقاربة أسئلة الوعي والذاكرة والهوية الوطنية ضمن السياقات التاريخية المحكومة بالأزمات والمنعطفات الصدمية الكبرى، وهو ما يجعل خطابه النقدي ممارسة تأويلية تفكيكية تسعى إلى إعادة التوازن الإبستمولوجي بين صوت المركز وصوت الهامش، بعيداً عن صيغ الانحياز الأيديولوجي المنغلق أو القراءات الاختزالية الصرفة لعلاقة التاريخ بالمتخيل.

تركيب.

وتخلص الورقة في مسارها التحليلي إلى نتائج إبستمولوجية تشكّل إجابةً نسقية عن أسئلتها النظرية، وتأكيداً لفرضيتها المركزية؛ بتحديد منجز إدريس الخضراوي بوصفه انعطافاً ميتا–نقديّاً يتجاوز الانغلاق الشكلاني نحو آفاق النقد الثقافي والأنثروبولوجيا التاريخية، ويمكن إجمال هذه الخلاصة المعرفية في المحاور والتمفصلات التالية:

- **إنتاجية المعرفة التاريخية ومساءلة الخطاب التدويني الرسمي:** أثبتت الدراسة أن منجز إدريس الخضراوي يُعيد بناء العلاقة الجدلية بين الحقيقة التاريخية والتخييل السردي. حيث يكتسب الوعي

الروائي قيمة إبستمولوجية قادرة على صياغة معرفة بديلة تفكك الثغرات التدوينية لخطاب النخب، متجاوزة الفصل التقليدي بين الوثيقة والمتخيل الأدبي.

- **جدارة المتخيل في حماية الذاكرة واستعادة الهوامش:** أبرزت الممارسة التطبيقية كيف يغدو النص الروائي في مقاربة الخضراوي وساطةً جمالية ومعرفية لحماية الذاكرة الجمعية من محو النسيان وسياقات التشويه الكولونيالي. وقد تجسد هذا المنحى إجرائياً في تفكيكه لمتن شربل داغر "ابنة بونابرت المصرية" عبر رصد مصائر فئة "المماليك والوافدين" بمرسيليا، وفي تشريحه لرواية "حرب الكوم" لمحمد المعزوز التي استقرأت السياقات الإنسانية والاجتماعية لفئة مجندي القبائل؛ ممّا أتاح منح هذه الذوات حيزاً للتعبير والاعتراف الرمزي الذي تجاوزته المدونات التاريخية الرسمية.

- **شعرية الخطاب والتأويل الزمني للحبكة:** كشف البحث عن تقاطع الرواية والتاريخ في "بنية الحبكة" كآلية تنظيمية تُحوّل الزمن الإنساني من سياقه الكرونولوجي الخطي إلى زمن تأويلي تتداخل فيه الاسترجاعات والاستباقات وفضاءات الذاكرة. وينسجم هذا التداخل النسقي مع أطروحات شعرية التاريخ وفينومينولوجيا الذاكرة، مبرزاً قدرة النص الروائي على استكشاف تحولات الذات وأبعاد الهوية الجماعية إبان المنعطفات التاريخية الكبرى.

- **حوارية المرجعيات وتكامل الأنساق النظرية:** كشفت الدراسة عن تقاطع أطروحات الفكر النقدي الغربي مع أسئلة النقد العربي المعاصر في منجز الخضراوي؛ لينتج خطاباً يربط سيميائيات العتبات بالتداخل الأجناسي، وصولاً إلى النقد الثقافي كأفق لاستنطاق تفاصيل الحياة اليومية وتحولات الهوية في مواجهة المنعطفات التاريخية الكبرى.

بيبليوغرافيا

1. إدريس الخضراوي،

- من التاريخ إلى الرواية: دراسة في آليات إنتاج المعرفة التاريخية عبر السرد، خطوط وظلال للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2026.
- سرديات الأمة: بناء الهوية في الرواية المغربية المعاصرة، إفريقيا الشرق، المغرب.

- – السرديات أو تحولات الوعي بالخطاب الأدبي، مجلة ثقافات، العدد21، يناير 2008.
- – السرد موضوعا للدراسات الثقافية، تبين للدراسات الفكرية والثقافية، فبراير2014.

2. بندكت أندرسن، الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها، ترجمة: ثائر ديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت،
3. ريكور بول، الزمان والسرد: الحبكة والزمان الحكائي (الجزء الأول)، ترجمة: سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2006.
4. باختين ميخائيل، شعرية دويستويفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1986.
5. هايدن وايت، محتوى الشكل: الخطاب السردي والتمثيل التاريخي، ترجمة: عاصم الدسوقي، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2008.
6. هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004.
7. صبري حافظ، تكوين الخطاب الروائي العربي: دراسة سوسيولوجية وبنيوية في سياق التحول الثقافي، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1996.
8. برادة محمد، فضاءات روائية، دار الفنك، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2002.
9. بوعزة محمد، تحليل الخطاب السردي: البنية والنمطية الثقافية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010.